شرح

كتاب الاعتصام

من صحيح البخاري

الشرح

لفضيلة الشيخ الدكتور

محمد بن هادي المدخلي

عضو هيئة التدريس في كلية الحديث بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

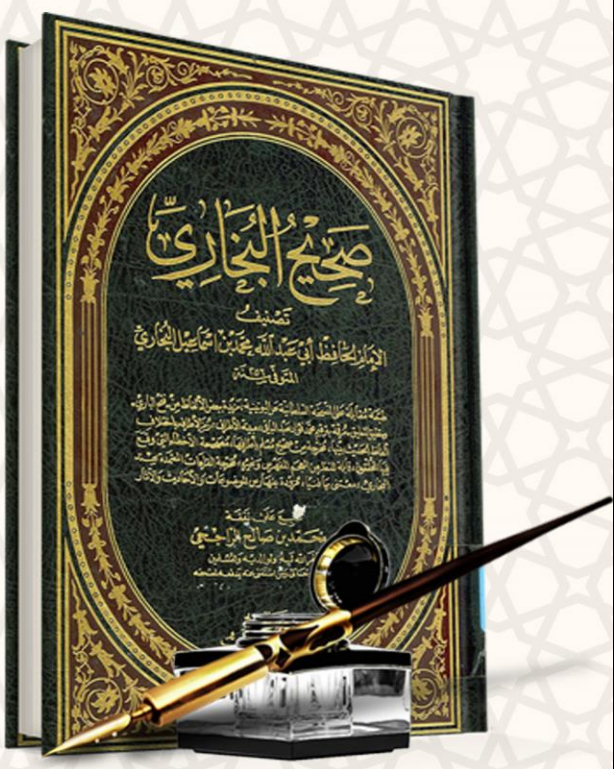

miraath.net

ميراث الأنبياء

قام بها فريق التفريغ بموقع ميراث الأنبياء

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسر موقع ميراث الأنبياء أن يقدم لكم تسجيلًا لدرسٍ في

شرح كتاب الاعتصام
من
صحيح الإمام البخاري

-رحمه الله تعالى-

ألقاه

فضيلة الشيخ الدكتور: محمد بن هادي المدخلي

-حفظه الله تعالى-

بجامع ابن هيجان بمحافظة الشقيق بجازان في شهر شوال عام ثمانية وثلاثين وأربعمائة وألف للهجرة النبوية،

نسأل اللّه -سبحانه وتعالى- أن ينفع به الجميع.

الدرس الثالث

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على رسوله الأمين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

قال الإمام البخاري -رحمه الله وغفر الله له ولشيخنا والحاضرين ولجميع المسلمين والمسلمات- في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة:

المتن:

حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، قال: حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ عُقَيْلٍ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قال: أَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، أَنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ الغَدَ حِينَ بَايَعَ المُسْلِمُونَ أَبَا بَكْرٍ، وَاسْتَوَى عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تَشَهَّدَ قَبْلَ أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ: "أَمَّا بَعْدُ، فَاخْتَارَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الَّذِي عِنْدَهُ عَلَى الَّذِي عِنْدَكُمْ، وَهَذَا الكِتَابُ الَّذِي هَدَى اللَّهُ بِهِ رَسُولَكُمْ، فَخُذُوا بِهِ تَهْتَدُوا وَإِنَّمَا هَدَى اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ".

الشرح:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسانٍ إلى يوم الدين، أما بعد:

فهذا الحديث -كما سمعنا جميعًا سنده ومتنه-: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ عُقَيْلٍ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، أَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ.

وقِراءته الحديثية أن يقال هكذا: قال الإمام البخاريُ -رحمه الله-: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، قال: حَدَّثَنَا اللَّيْثُ فتثبت كلمة قال، أنه قال: عَنْ عُقَيْلٍ فتثبت لفظة أنه؛ لأن هذه تثبت نطقًا وتحذف خطًا، أنه قال: عَنْ عُقَيْلٍ أنه قال: عَنِ ابْنِ شِهَابٍ قال: أَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ -رضي الله عنه- أَنَّهُ

سَمِعَ عُمَرَ، الغَدَ حِينَ بَايَعَ المُسْلِمُونَ أَبَا بَكْرٍ، وَاسْتَوَى عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، تَشَهَّدَ قَبْلَ أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ: "أَمَّا بَعْدُ، فَاخْتَارَ اللهُ لِرَسُولِهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الَّذِي عِنْدَهُ عَلَى الَّذِي عِنْدَكُمْ، وَهَذَا الكِتَابُ الَّذِي هَدَى اللهُ بِهِ رَسُولَكُمْ، فَخُذُوا بِهِ تَهْتَدُوا وَإِنَّمَا هَدَى اللهُ بِهِ رَسُولَهُ".

والشاهد فيه للباب آخر الأثر قول عمر، وهو قوله: "وَهَذَا الكِتَابُ الَّذِي هَدَى اللهُ بِهِ رَسُولَكُمْ -الاعتصام بالكتاب- فَخُذُوا بِهِ تَهْتَدُوا وَإِنَّمَا هَدَى اللهُ بِهِ رَسُولَهُ".

فنقول هذا الحديث الكلام عليه من وجوه:

الأول: أنه مُخرجٌ عند الترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

والثاني: أنه من الأحاديث المكررة في صحيح البخاري وذلك؛ لأن البخاري -رحمه الله تعالى- قد خرجه في غير هذا الموضع حيث خرجه في الاستخلاف وذكره هناك بنحوٍ مما هو هنا.

والأمر الثالث: أن هذا الحديث مناسبته للباب ظاهرةٌ في الاعتصام بالقرآن الذي هو الكتاب، وذلك في قول عمر -رضي الله عنه- يوم أن بويع لأبي بكرٍ بيعة عامة الناس التي كانت في المسجد، فإن أبا بكرٍ -رضي الله عنه- بايعه الناس على قسمين: البيعة التي حضرها وجهاء الصحابة وكبارهم من المهاجرين والأنصار، وهذه التي كانت في ثقيفة بني ساعدة، ففي الثقيفة حينما تشاوروا فيمن تكون الخلافة بعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكان ما كان مما جرى بينهم مما هو معروف، وتم الأمرُ لأبي بكر -رضي الله تعالى عنه- وبايعه عمر، وبايعه الناس بعده في

الثقيفة، هذا كان في اليوم التالي حيث كان في مسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-بعدما عادوا من الثقيفة وفرغوا من أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جاء في الصباح من الغد فصعد أبو بكر -رضي الله تعالى عنه- منبر النبي -صلى الله عليه وسلم- واستوى عليه، وقبل أن يخطب أبو بكر خطبته المعروفة بعد ولايته بعدما بويع، سبقه أمير المؤمنين عمر -رضي الله تعالى عنه- ذلك اليوم فحمد الله وتشهد قبل أبي بكر، ثم قال: **"أَمَّا بَعْدُ، فَاخْتَارَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الَّذِي عِنْدَهُ عَلَى الَّذِي عِنْدَكُمْ"** يعني لحق بالرفيق الأعلى، وقد جاء بيان ذلك أيضًا في الحديث في الرواية الثانية، قال: وقد كنا (كنا يعني عمر -رضي الله عنه-) يقول: **"كنا نأمل أن يؤخر النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى يدْبُر أمرنا"**، أو قال: **"حتى يدْبُرَنا"**، وجاء في بعض الطرق **"حتى يُدَبِّرَنا"**، فقوله: **"حتى يدبُرنا"** يعني يكون هو الدابر لنا، يعني أننا نحنُ الذين نموت قبله ونسبقه فلا يقع بيننا خلاف، فيكون هو آخر من يموت فلا يحصل خلاف بيننا؛ لأنه حي -صلى الله عليه وسلم- فهذا معنى يدبُرنا، وجاء في بعض الطرق يُدَّبِرَنا وهي ظاهرة يعني يدبر أمرنا، لكن الله -سبحانه وتعالى- اختار له ما عنده على ما عندنا يعني عن الحياة الدنيا، فحصل هذا الذي حصل بيننا في أول الأمر من النزاع فيمن يتولى الخلافة، ثم قُطع بمبايعة أبي بكر في الثقيفة، فقال -رضي الله تعالى عنه- : **"وَهَذَا الكِتَابُ الَّذِي هَدَى اللَّهُ بِهِ رَسُولَكُمْ، فَخُذُوا بِهِ تَهْتَدُوا"** يعني مما جاء فيه الأمر بطاعة الولاة، وسيأتينا أيضًا في البيعة شيءٌ من ذلك في حديث ابن عباس فإن من اعتصم بالكتاب وبالسنة المطهرة في هذا الباب لم يحصل منه خلاف وذلك؛ لأن أبا بكر -رضي الله عنه- قد بايعه أعيانُ

الصحابة -رضي الله عنهم- وأفضلهم ومقدمهم من بعده عمر فقال له: **"ابسط يدك لأبايعك"** فبايعه -رضي الله تعالى عنه- ثم بايعه الناس في السقيفة بعد عمر -رضي الله تعالى عنه-، فالاعتصام بالكتاب والسنة في أمر السمع والطاعة والبيعة للأئمة يقطع الخلاف، ويزيل النزاع، ويسد الباب أمام الفتن في هذا الجانب؛ فلذلك أشار إليه عمر -رضي الله تعالى عنه- بقوله: **"وَهَذَا الكِتَابُ الَّذِي هَدَى اللَّهُ بِهِ رَسُولَكُمْ"** يعني فيه بيان ما يتعلق بالسمع والطاعة، وهو إشارة إلى قول الله -جل وعلا-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ النساء:٥٩، ولذلك أشار إلى هذا بذكر الكتاب، ثم قال لهم -رضي الله تعالى عنه-: **"بايعوا"** فبايع عامة الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، فكانت هذه البيعة العامة لأصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حينما بايعوا أبا بكر كانت في المسجد بعد خطبة عمر -رضي الله تعالى عنه-.

والشاهد من هذا الحديث من كتاب الاعتصام أن من طبَّق الكتاب والسنة على نفسه قولًا وعمَلًا في هذا الباب الذي يكثر فيه النزاع، وتحصل بسببه الفتن، ويحصل الاختلاف بين المسلمين؛ فإنه لا يحصل منه خلاف ولا يقع هو بالاختلاف بل يقع في النجاة والسلامة، والسلامة هنا في الدخول في بيعة من ولي على المسلمين، ورضيه المسلمون، وأبو بكر -رضي الله تعالى عنه- بايعه عامة أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالمدينة النبوية، هل كل الناس بايعوه؟ وجاءوا إليه وضربوا بصفحة أيديهم في صفحة يده، وصفقوا بأيديهم في يده؟ لا، وإنما أهل الحل والعقد ووجهاء الناس وأعيانهم إذا عقدوا البيعة والولاية للإمام انتظم له الأمر، ووجبت طاعته، ووجب

على الناس أن يدخلوا في السمع والطاعة، وأن لا ينزعوا يدًا من طاعة، فإنهم بهذا يقطعون باب الفتن، وباعتصامهم بالكتاب والسنة في السمع والطاعة للأئمة يحصل الخير، ويحصل حينئذ الائتلاف، ويقطع الائتلاف الاختلاف، ويسد باب الشر، وهذا الباب باب عظيم، فإن الناس إذا اجتمعوا على الخلافة وعلى الولاية حماهم الله -جل وعلا-، وانتظمت لهم أمورهم، وقامت مصالحهم في معاشهم ومعادهم، أما معاشهم فبتسيير وتدبير جميع شئون الحياة؛ تدر الأرزاق، تقوم الأسواق، تأمن السبل، تنفذ الحدود، تقام الجُمع والجماعات والأعياد، وتحمى الثغور، يجاهد العدو، كما قال الحسن البصري -رضي الله تعالى عنه-، فلا يصلح الدين ولا يستقيم أمر لأهل الإسلام إلا بوجود الأئمة.

إن الخلافة حبل الله فاعتصموا ۞۞۞ منه بعروته الوثقى لمن دان

لم يرفع الله بالسلطان معضلة ۞۞۞ في ديننا رحمة منه ودنيانا

لولا الخلافة لم تأمن لنا سبل ۞۞۞ وكان أضعفنا نهبًا لأقوانا

فمن الشئون الدينية أن تعمر المساجد، وتقوم حلق الذكر، وينتشر العلم، وتسلك السبل إلى بيت الله الحرام، وتؤدى فريضة الحج، يؤدي الناس الصلوات، الأعياد، والخسوف، والكسوف، والاستسقاء، وهذا كله لا يتأتى في حال الخوف، فالاعتصام بالكتاب والسنة في هذا الباب ينفع الله به ويدفع الله به ويرفع الله به.

أما كونه ينفع الله به فقد سبق ما سمعتم، وأما كونه يدفع الله به فيدفع به شر الاختلاف الذي يؤدي إلى التحارب والتناحر، وأما كونه يرفع الله به فإذا وقع خلاف وذُكِّر أهل الإسلام بالكتاب والسنة وما فيها في هذا الباب فإن المسلم ينقاد لذلك، وإذا انقاد حصل الخير وارتفع الشر، كما سيأتي -إن شاء الله- معنا في بيعة ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- لعبد الملك بن مروان.

والشاهد أن أبا حفص عمر -رضي الله تعالى عنه- أشار إلى هذا بقوله أن هذا الأمر المرجع فيه إلام؟ إلى كتاب الله -سبحانه وتعالى- حيث قال: "وَهَذَا الكِتَابُ الَّذِي هَدَى اللَّهُ بِهِ رَسُولَكُمْ فَخُذُوا بِهِ تَهْتَدُوا" يعني خذوا به في باب السمع والطاعة والبيعة، فقد بين الله -سبحانه وتعالى- فيه ما يجب الأئمة إذا عقدت لهم الولاية فلا يجوز أن يُختلف عليهم ولا أن يخرج عليهم ولا أن يمتنع من بيعتهم، فمن أطاع الكتاب وأطاع السنة فإنه حينئذ يكون مثابًا، ويكون أيضًا مباعدًا نفسه عن الفتن بسبب اعتصامه بهذا الكتاب العزيز، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قد قال حينما وصى أصحابه الوصية العظيمة كما في حديث العرباض التي كأنها موعظة مودع، قالوا له: فأوصنا، أوصاهم بتقوى الله، ثم عطف عليه بالأمر الثاني السمع والطاعة: «وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ» ما دام عقدت له الولاية واستتب له الأمر فإنه لا يجوز الخروج عليه؛ لأن هذا يحصل به الشر العظيم، ويحصل به المخالفة لكتاب الله -سبحانه وتعالى-، فإنه إذا تأمر الأمير بالطرق المعروفة التي ذكرها العلماء:

- إما أن تكون على طريقة أبي بكر بالاختيار؛ اختيار الناس لأبي بكر، هذه الطريقة الأولى، يختارون الحاكم هم، أهل الحل والعقد يختارون حاكمًا، هذه الطريقة الأولى.
- وإما أن يكون بالعهد، فإن أبا بكر -رضي الله تعالى عنه- عهد بها إلى عمر، ونعم ما عهد به، ونعم من عُهد إليه فيجب أيضًا أن يسمع لهذا العاهد ويطاع له وينفذ عهده من بعده كما أقر ذلك أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهذه فيه أعظم رد على الذين يقولون اليوم أنه ما يصلح ولاية العهد أو الوصية بالخلافة، لماذا لا يدع الناس يختارون؟ اختار من هو خير منا ولذلك لما قيل لعمر -رضي الله تعالى عنه-: اعهد إلينا، فقال: **"إن أعهد فقد عهد من هو خير مني، وإلا أعهد فقد ترك ذلك من هو خير مني"** يعني إن أنا عهدت بالولاية لشخص خلفي فقد فعل ذلك من هو أفضل مني وهو أبو بكر -رضي الله عنه- فأنا إن عملت ذلك أكون مقتديًا بأبي بكر، وإن لم أفعل ذلك أكون مقتديًا بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، قال عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما-: **"فما هو إلا أن قال ذلك فعرفنا أنه لا يعدل برسول الله -صلى الله عليه وسلم- أحدًا، فلم يعهد إلى شخص بعينه، لكن عهد بالأمر إلى أهل الشورى"** وهذا هو الوجه الثالث الذي تنعقد به ولاية الخليفة أو السلطان أو الإمام: أن يكون الأمر في اختياره إلى أهل الشورى؛ أهل الحل والعقد فعمر عهد بذلك إلى بقية العشرة، فاتفق أمرهم على عثمان -رضي الله تعالى عنه-، فقطع الله -سبحانه وتعالى- بذلك الخلاف، وقطع دابر الشر.

والشاهد أن من طبق الكتاب والسنة في هذا الباب على نفسه واعتصم به فإنه لا يمكن أن يضل، ويرتاح من الفتن ويسلم منها.

فنسأل الله -جل وعلا- أن يجعلنا وإياكم ممن يطبق الكتاب والسنة على نفسه قبل غيره، إنه جواد كريم.

المتن:

قَالَ: حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا وُهَيْبٌ، عَنْ خَالِدٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «ضَمَّنِي إِلَيْهِ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَقَالَ: اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الكِتَابَ».

الشرح:

هذا لا شك فيه، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد دعا لعبد الله بن عباس -كما نحن نعرف ذلك جميعًا- **الشاهد:** أن هذا الحديث؛ حديث عبد الله بن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ودعوة النبي -صلى الله عليه وسلم- له حديثٌ مشهور ومعروف للعام والخاص، ورجال إسناده كما سمعتم مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ عَنْ وُهَيْبٍ عَنْ خَالِدٍ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قَالَ: «ضَمَّنِي إِلَيْهِ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَقَالَ: اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْكِتَابَ».

هذا الحديث خرجه الإمام الترمذي في جامعه، كما خرجه النسائي، وهكذا ابن ماجه -رحمهم الله تعالى جميعًا- وهو عندهم بألفاظٍ مقاربة لهذا اللفظ، وقد اختصر فيه البخاري هنا -رحمه الله-.

ثانيًا: هو من الأحاديث المكررة في البخاري أيضًا، فقد خرجه في كتاب العلم أول موضع فيه، خرجه في كتاب العلم **"باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: اللهم علمه الكتاب"** من طريق عَبْدِ الْوَارِثِ عَنْ خَالِدٍ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- بمثله، بهذا اللفظ أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ضمَّه إليه ثم قال: «اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْكِتَابَ».

ووجه مطابقة هذا الحديث لكتاب الاعتصام هي أن تعلُّم القرآن والسنة والفقه الذي جاء فيهما سببٌ للنجاة حين حصول الخلاف، وفي ذلك بيان فضل العلم الشرعي وأنه منجاة لصاحبه، وذلك لأن من فَقُه في دين الله -تبارك وتعالى- وتعلَّم عبَدَ الله على بينة وعلى نور من الله كما سيأتي -إن شاء الله تعالى- بيان ذلك معنا، وإذا كان هكذا فيكون حينئذٍ قد اعتصم بالكتاب والسنة، من تعلم الكتاب والسنة وتفقه فيهما وعلِم ما فيهما يكون حينئذٍ قد اعتصم بالكتاب والسنة، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْكِتَابَ» وقد جاء في الرواية الأخرى: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ» فتعليم التأويل بمعنى معرفة تفسير هذا القرآن، ومعرفة ما احتوى عليه من الفقه، وما احتوى عليه من الأحكام، فهذا هو الفقه في الدين، فكان عبد الله بن عباس -رضي الله تعالى عنهما- بعد ذلك حَبرًا جليلًا وإمامًا في أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نبيلًا، وقد كان عمر -رضي الله تعالى عنه- يدخله بسبب ذلك مع الكبار من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى وجدوا في أنفسهم على عمر -رضي الله عنه- لماذا يُدخل ابن عباس وهو صغير ويمنعهم من أن يُدخلوا أولادهم فأخبرهم -رضي الله تعالى عنه- بسؤاله لابن عباس عن آيةٍ من

كتاب الله -تبارك وتعالى- ليُبين لهم فضله، فلما تبينوا رضوا عن عمر -رضي الله تعالى عنه-، وكان ذلك مصداق دعوة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وإجابة دعوة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ ولأجل هذا كانوا يرجعون إليه مع كبرهم وصغره في السن، وهذا فيه فضل العلم حيث يعلو به الصغير سنًا على الكبير سنًا ويعلو به المولى على السيد وعلى الشريف، فالفضل إنما هو بهذا الكتاب، فهذا الكتاب هدى فمن تعلمه وفقُه فيه واعتصم به دلَّه على الخير، قال -جل وعلا-: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥ ﴾ البقرة:١ - ٥، فنصَّ الله -جل وعلا- على أن هذا الكتاب الأخذ به، والتمسك به، والإيمان بما فيه، والعمل به هو الفلاح وهو الهدى كما قال أيضًا عمر في الحديث السابق، فالاعتصام به يورث صاحبه الخير، قال -جل وعلا-: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ ﴾ البقرة:١٨٥، فالقرآن هدى لمن اهتدى به كما قال -جل وعلا-: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ ﴾ الأنعام:٨٨، قال -جل وعلا-: ﴿ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢ ﴾ الأعراف:٥٢، فمن آمن بما جاء فيه وعمِل به واعتصم به فإن الله -جل وعلا- يهديه به ويُنير له دربه، والإنارة في موطن الظلام هي التي تنفع صاحبها، والظلام حصول الفتن وحصول الأهواء وحصول الشرور وحصول الاختلاف، تلقى العلماء أبعد الناس عنها، وأكثر الناس دعوة إلى الالتئام وإلى الاتحاد وإلى الائتلاف على الحق والهدى، تلقاهم أبعد الناس عن

المشاركة في أبواب الشر، وأكثر الناس دعوة للناس إلى الخير بسبب ما آتاهم الله -جل وعلا- من علمهم بهذا الكتاب؛ ولذلك دعا النبي -صلى الله عليه وسلم- لابن عباس به، فإن هذا القرآن نور كما قال -جل وعلا- في سورة المائدة: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦ ﴾ المائدة: ١٥ - ١٦، فجمع الله -جل وعلا- كل ما في هذا الكتاب في هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا ﴾ المائدة: ١٥؛ لأن أهل الكتاب استكبروا ولم يؤمنوا بالنبي -صلى الله عليه وسلم- فنبههم الله -جل وعلا- على هذا فقال: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ ﴾ المائدة: ١٥، يعني ما عندكم في التوراة مما أخفيتموه ولم تعملوا به فوقعتم بسبب ذلك في الشر، كما قال -جل وعلا-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ ﴾ البقرة:١٥٩، هم هؤلاء؛ هم أهل الكتاب ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠ ﴾ البقرة:١٥٩ - ١٦٠، فالله -جل وعلا- عاتب أهل الكتاب بهذا بقوله: ﴿ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ المائدة: ١٥، كما قال -جل وعلا- عن عيسى -عليه الصلاة والسلام-: ﴿ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦ ﴾

الصف:٦، وأخفَوا ما عندهم في كتبهم بالبشارة به -صلى الله عليه وسلم- كما جاء ذلك في أخبار السير وموقف اليهود من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى إن رءوسهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وأبناؤهم يخاطبونهم: أهو هو؟ يقولون: نعم هو هو، طيب ماذا أضمرت؟ ماذا قررت؟ يقول: عداوته ما حييت، فهذا مما أخفوه في الكتاب، فعاتبهم الله وفضحهم بقوله -جل وعلا-: ﴿ يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ المائدة: ١٥ - ١٦، فالنور هو الذي ينفع صاحبه وقت الظُّلَم، فالظُّلَم هي الفتن، والجهل، والأهواء المضلة، والبدع المردية، فمن اعتصم بالكتاب وتفقه بالكتاب وفهم هذا الكتاب على ما جاء به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أخرجه الله به من الظلمات إلى النور وهداه به إلى صراطه المستقيم، كما قال -جل وعلا-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ ﴾ النساء: ١٧٤ - ١٧٥، شوف هذه الآية مطابقة للاعتصام ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾ النساء: ١٧٥ فهذه الآيات في ألفاظ هذه الأحاديث أو قريبة منها لِمَ؟ لأنها وحي، وحي من الله كالقرآن شاهده في سورة النجم ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ النجم: ٣ - ٤، فالذي أنزل القرآن عليه هو الذي أنزل عليه السنة، كما قال هشام بن حسان التابعي الجليل -رضي الله عنه-: إن جبريل كان ينزل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالسنة كما كان ينزل عليه بالقرآن،

فالاعتصام بالسنة كالاعتصام بالكتاب، فمن اعتصم بالكتاب نجا ومن اعتصم بالسنة أيضًا نجا، فهذه الآية والتي قبلها مع أهل الكتاب ينبغي أن تكون مدونة في هذا الموطن في الاعتصام بالكتاب والسنة على نسخة كل واحد منا ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦ ﴾ المائدة: ١٥ - ١٦

وهذه الآية الثانية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمًا ١٧٥ ﴾ النساء:١٧٤ ، ١٧٥

فالاعتصام بالكتاب هذه ثمرته يرحم الله به المعتصم به ويهديه به وينير له به الطريق ويحفظه به -سبحانه وتعالى- ويدله على مراد الله -جل وعز- هذا كله من فضل هذا الكتاب فمن التزم بهذا الكتاب فقد هدي كما قال -جل وعلا-: ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٠١ ﴾ آل عمران: ١٠١ وكما قال -جل وعلا- مبينًا حال من أعرض عنه قال: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٧ ﴾ طه ١٢٤ - ١٢٧

فهذه الآيات دالة على المصير الذي يلاقي من أعرض عن الكتاب في هذه الحياة الدنيا، فيحشر يوم القيامة أعمى بعد أن كان بصيرًا، ويتخبط في الدنيا بسبب الجهل والإعراض عن هذا الكتاب؛ ولذلك دعا النبي -صلى الله عليه وسلم- لابن عباس بأن يعلمه الله -جل وعلا- الكتاب، فإن من علمه الله -سبحانه وتعالى- الكتاب فقد وفق للخير كله، فنسأل الله -سبحانه وتعالى- أن يرزقنا وإياكم العمل بكتابه وفهمه وتدبره والفقه فيه إنه جواد كريم.

المتن:

قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَبَّاحٍ، حَدَّثَنَا مُعْتَمِرٌ، قَالَ: سَمِعْتُ عَوْفًا، أَنَّ أَبَا المِنْهَالِ، حَدَّثَهُ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا بَرْزَةَ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يُغْنِيكُمْ - أَوْ نَعَشَكُمْ - بِالإِسْلاَمِ وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

الشرح:

هذا الحديث -كما سمعنا- حديث أبي برزة الأسلمي -رضي الله تعالى عنه- مما انفرد به البخاري عن الجماعة جميعًا -رحمه الله- وهو من المكررات أيضًا، انفرد به عن بقية الستة، تفرد بإخراجه هو، وهو أيضًا من المكررات عند البخاري حيث أخرجه في كتاب الفتن، وقد ساقه البخاري هناك في الاستخلاف بأطول مما هنا، وذلك أنه حينما حصل الخلاف في مسألة الولاية كره ذلك أبو برزة -رضي الله تعالى عنه- وغضب وقال -رضي الله عنه- مقالته هذه: "إن الله يُغنيكم" بضم أوله، بضم الياء يُغنيكم من الغنى، مكسورة، أو شك الراوي قال: "أو نعشكم بالإسلام" يعني: إن الله أغناكم بالإسلام، أو إن الله نعشكم بالإسلام، وقد رجح الإمام البخاري -رحمه الله تعالى- هنا أن كلمة "نعشكم" هي الصحيحة "إن كلمة إن الله نعشكم" والنعش هو الرفع، النعش هو الرفع ومنه يقال

للنعش الذي يوضع عليه الميت نعشًا؛ لأنه يرفع على الأكتاف، يحمل على الأكتاف يُسمى نعش، فالرفع هو النعش ومنه قيل للنجوم المعروفة بنات نعش؛ لأنها مرتفعة، فالنعش هو الرفع فرجح الإمام البخاري -رحمه الله تعالى- في هذه الرواية "إن الله يغنيكم أو نعشكم بالإسلام" يعني إذا قلت بالثنتين معناه إن الله يغنيكم بالإسلام عما سواه فأنتم لستم بحاجة إلى أن تأخذوا من هنا وهنا، وإذا قلت بأن إن الله نعشكم بالإسلام يعني رفعكم بالإسلام وأعلاكم به وأعزكم به فلا تتركوه واعتصموا به، هذا هو المراد، وقد رجح البخاري -رحمه الله تعالى- الثانية اللفظة الثانية "إن الله نعشكم بالإسلام" وقال -رحمه الله-: "إن الرواية هكذا وقعت له هنا، لكن عنده في كتاب الاعتصام كتاب مستقل" كتاب آخر، الاعتصام له كتاب آخر بهذا الاسم غير الصحيح، غير كتاب الاعتصام هذا كتاب مستقل، قال: "وارجعوا إلى أصله" يعني يراجع الأصل يصحح منه، فإن روايته هناك ليس فيها إلا "إن الله نعشكم بالإسلام وبمحمد -صلى الله عليه وسلم-" فرجح البخاري "نعشكم" يعني إن الله رفعكم رفع قدركم ومكانتكم بالإسلام وبنبي الإسلام محمد -صلى الله عليه وسلم-، فالبخاري يرى هذا، وقد صوب ذلك كثير ممن نظر في كلام البخاري -رحمهم الله جميعًا- ومن آخرهم الحافظ ابن حجر في «الفتح» فإنه قد بين ذلك وبين أن البخاري قد نص عليه وأنه في كتاب الاعتصام، وكتاب الاعتصام هذا لم يصل إلينا، وشبهه بكتاب الأدب في جامع البخاري الصحيح، فإن في الكتاب صحيح البخاري كتاب اسمه كتاب الأدب، وله كتاب آخر اسمه كتاب الأدب المفرد، فيقول الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: "فلعل هذا مثله، كتب أولًا الأدب المفرد واختار منه ما

يناسب ويصلح لشرطه فيما في الصحيح فأدخله في الصحيح" وفيه أحاديث أخرى صحيحة لكنها ليست على شرطه تركها في الكتاب الكبير، فهكذا مثله كتاب الاعتصام صنف كتابًا في الاعتصام مستقلًا واختار منه الأحاديث التي تصلح لشرط الجامع الصحيح، فأودعها كتابه الجامع، وترك أحاديث أخرى إما طلبًا للاختصار، وإما لأنها ليست على شرط الصحيح فتركها لذلك وإن كانت صحيحة؛ ولهذا قال البخاري -رحمه الله تعالى- في هذا: ارجعوا إلى إيش قال يرجع إلى الأصل يراجع الأصل وهو كتاب الاعتصام الذي ألفه مستقلًا فإن الروايات فيه لهذا الحديث، والصواب أنها بلفظة "نعشكم".

وعلاقة هذا الحديث -حفظكم الله- بكتاب الاعتصام ظاهرة جدًا؛ وذلك إذا كان الله -جل وعلا- نعشنا بالإسلام بالقرآن وبمحمد -صلى الله عليه وسلم- الذي دينه الإسلام وجاءنا بالقرآن والسنة، أيحل لإنسان بعد ذلك أن يعرض عن تعاليم الإسلام وأحكام الإسلام وما جاء به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويترك الاعتصام بالكتاب والسنة؟! أبدًا لا يحل له، فإن الله -جل وعلا- إنما رفعنا بالقرآن الذي جاء به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقال فيه ربنا -جل وعلا-: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ آل عمران: ١٩، قال فيه -جل وعلا-: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥ ﴾ آل عمران: ٨٥، فمن رفعه الله بالإسلام ونعشه بالإسلام يعني أعلى قدره ورفع مكانه لا ينبغي له أن يترك الرفعة ويأتي إلى الضعة يأتي إلى النزول، وذلك بالإعراض عن القرآن والأخذ بما خالفه، فإن الله -جل وعلا- يرفع بهذا القرآن أقوامًا

ويضع به آخرين، وهكذا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الرفعة فيما جاء به، فالتمسك بما جاء به هو الرفعة ومخالفة ذلك هو الضعة والذل، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: « وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي» ، «بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ بالسَّيْفِ، حتى يُعبدَ اللهُ وحدَه لا شريك له، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ» إذًا فالرفعة لمن اتبع هذا الرسول -صلى الله عليه وسلم- فمناسبة هذا الحديث للاعتصام ظاهرة، يعني الاعتصام بالإسلام، بدين الإسلام وبما جاء به -صلى الله عليه وسلم- بمحمد -صلى الله عليه وسلم- في حياته، وبعد مماته -عليه الصلاة والسلام- بالاعتصام بسنته -صلى الله عليه وسلم- فلابد من ذلك ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ آل عمران: ٨٥، وهكذا من عمل بخلاف سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- فإن عمله مردود والذلة والصغار عليه كما قال -عليه الصلاة والسلام-.

إذًا فالعز كل العز في الاعتصام بدين الإسلام، وبما جاء به هذا الرسول -صلى الله عليه وسلم-، فإن الاعتصام بالدين وبسنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هو سبيل النجاة كما تقدم معنا بالأمس «تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللهِ، وَسُنَّتِي» فكتاب الله هو القرآن الذي بين أيدينا وقد حفظه الله -سبحانه وتعالى- ولم يحصل هذا الحفظ لكتاب من الكتب السابقة قبله، فاليهود حرفوا في كتابهم، والنصارى حرفوا في كتابهم وهذا الكتاب لو يخطئ فيه أجل العلماء عندما يقرؤه يرد عليه أصغر الصغار من أطفال المسلمين ممن يحفظون هذا القرآن، فحفظ الله

-جل وعلا- هذا بحفظه -سبحانه- كما قال -جل وعز-: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الحجر:٩، فحفظ الله -جل وعلا- للقرآن حفظ لأمة الإسلام؛ لأنه حفظ لدين الإسلام فيجب أن يؤخذ بهذا الكتاب وخصوصًا في وقت الاختلاف، وأبو برزة قال ذلك في وقت الاختلاف وذلك حينما جاءوا إليه -رضي الله تعالى عنه- في قصة ابن الزبير وما كان في أيامه، فقال -رضي الله تعالى عنه- هذه المقالة، فقد وثبوا إليه يستشيرونه -رضي الله تعالى عنه- أبو برزة الأسلمي، وثب إليه ابن الزبير وأخذ يعني يتكلم معه في هذا وحينما حصل منه ذلك قال هذه المقالة -رضي الله تعالى عنه- وفي هذا بيان مكانة أهل العلم وبيان فضل أهل العلم وسيأتي معنا -إن شاء الله- مزيد بيان له في الحديث الثاني -إن شاء الله- وهو الحديث الذي يليه.

والحاصل أن الرفعة والعزة إنما هي في الاعتصام بهذا الدين وبسنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فإن قوله: **"وبمحمد -صلى الله عليه وسلم-"** المراد بذلك في حياته وبعد مماته بسنته -عليه الصلاة والسلام- كما قال -جل وعلا-: ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ الشورى: ١٠، نعم، فالرد إلى الله إلى كتابه، والرد إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- الرد إليه في حياته وإلى سنته بعد مماته، وكما قال -جل وعلا-: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ ال نور:٥٤، وهو حريص -عليه الصلاة والسلام- على أمته فلم يدع شيئًا من الخير والشر إلا بينه لها وتركنا على البيضاء -صلوات الله وسلامه عليه-.

فهذه مناسبة ذكر هذا الحديث فيما في كتاب الاعتصام فإن العزة والرفعة إنما هي في الإسلام الذي نعش الله به هذه الأمة من جاهليتها ومن سباتها ومن جهلها ومن منامها ومن مذلتها، أعلاها الله به حينما أخذوا به وآمنوا به، وهكذا بهذا النبي -صلى الله عليه وسلم- فالعزة في اتباعه والقوة في الاهتداء به والاقتداء بسنته والتمسك بها، فهذا هو وجه دخول هذا الحديث في كتاب الاعتصام والعلم عند الله.

المتن:

قَالَ: «حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ حَدَّثَنِي مَالِكٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ كَتَبَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ يُبَايِعُهُ وَأُقِرُّ لَكَ بِذَلِكَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ فِيمَا اسْتَطَعْتُ».

الشرح:

الله أكبر! هذا الحديث -كما سمعتموه- عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى- عنهما لما حصل الخلاف بعد وفاة يزيد بن معاوية -رضي الله تعالى عنه- قام وصار منه هذا بعد مقتل عبد الله بن الزبير -رضي الله تعالى عنه- وذلك أن يزيد بن معاوية لما مات بقي الناس بلا خليفة.

قَالَ: «حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ حَدَّثَنِي مَالِكٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ كَتَبَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ يُبَايِعُهُ وَأُقِرُّ لَكَ بِذَلِكَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ فِيمَا اسْتَطَعْتُ».

هذا الحديث -كما قلنا- جاء به البخاري -رحمه الله- في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، والمناسبة فيه ظاهرة وهي قوله -رضي الله تعالى عنه-: "وَأُقِرُّ لَكَ بِذَلِكَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ" وقد جاء في بعض الروايات: "وَأُقِرُّ لَكَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ -صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَم-

فِيمَا اسْتَطَعْتُ" ففيه الإشارة إلى أن مبايعة عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- كانت على الصفة التي بايعوا عليها الرسول -صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَم- فقد كانوا يبايعونه -صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَم- على السمع والطاعة، في المنشط والمكره ويلقنهم -صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَم- بقوله: «فِيمَا اسْتَطَعْتُمْ» هكذا جاءت السنة، فإذا كانت السنة جاءتنا بهذا فيجب أن نعتصم بها في هذا الباب، باب الخلافة، باب الولاية، باب الإمارة، فالسمع والطاعة للولاة في المنشط والمكره، في العسر واليسر، وعلى أثرة علينا، ولا ننازعهم في هذا كله بهذا النحو، مقيد بم؟ فيما استطعنا فالإنسان إنما يُكلف بما يستطيع، وسيأتينا -إن شاء الله تعالى- ذكر اللفظ في هذا الحديث الآخر.

والحديث هذا -حفظكم الله- انفرد أيضًا بإخراجه البخاري -رحمه الله-.

وثانيًا: هو أيضًا من المكررات عند البخاري، فقد خرجه في كتاب الأحكام "باب كَيْفَ يُبَايِعُ الإِمَامُ النَّاسَ" فالناسَ: مفعول، والإمام هو الفاعل، ومقصودة هذه "كَيْفَ يُبَايِعُ الإِمَامُ النَّاسَ" يعني لا يشقون عليهم ويسنون بهم غير سنة النبي -صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَم- نعم هذا هو المراد: "باب كَيْفَ يُبَايِعُ الإِمَامُ النَّاسَ" فأخرجه في كتاب الأحكام -رحمه الله تعالى- تحت هذا الباب.

فقال فيه ابْنُ دِينَارٍ: "شَهِدْتُ ابْنَ عُمَرَ حَيْثُ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ" هنا على طول كتب أليس كذلك؟ هناك بيَّن سبب الكلام متى ساقه؟ قَالَ: "شَهِدْتُ ابْنَ عُمَرَ حَيْثُ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ" يعني عبد الملك بن مروان، وهذا فيه إشارة إلى أنه كان بعد مقتل ابن الزبير، والأصل أن

ابن عمر كان قد اعتزل الجميع، فإنه بعد موت معاوية -رضي الله تعالى عنه- وموت ابنه يزيد -رحمه الله وغفر الله لنا وله- حصل ما حصل، فكان على بلاد العراق عبيد الله ابن زياد بالبصرة، فلما اختلف الناس وفرغ منصب الإمامة والولاية لم يكن لهم في هذه المدة خليفة، أمير للمؤمنين بعد يزيد قام أهل البصرة، جاء عبيد الله بن زياد إلى أهل البصرة؛ قال: الآن المحل فاضٍ ما في أحد ما في إمام، فقال له أهل البصرة: تبقى أميرًا علينا حتى ننظر ماذا يتم في حال المسلمين، خلك أميرًا يحفظ الله بك العباد والبلاد، نحن رضيناك أميرًا تبقى أميرًا علينا، تمسك الإمارة؛ لأنه لابد للناس من أئمة، ولابد لهم من ولاة ينظمون أمورهم، قالوا له: تبقى علينا، قال: طيب، هذه الفترة بُويع لابن الزبير، عبد الله بن الزبير -رضي الله عنهما- بمكة، ووصلت رُسُله إلى العراق، فقام بعض الناس على عبيد الله بن زياد، فقام عليه قميصة بن ذؤيب وحصل ما حصل فتوارى، ثم خرج بعد ذلك من البصرة، ونُهبت أموالهم في هذه الفترة، أصبح الناس لا أمير لهم، وصار ما صار بعد ذلك؛ لأنه رجع إلى الشام، صار ما صار بعد ذلك من الأمور التي جرت بين عبد الله بن الزبير وبين بني أمية حتى قُتل عبد الله بن الزبير، وكان يُطلب هذه الفترة من ابن عمر أن يبايع، فهذا يطلبه للمبايعة وذاك يطلبه للمبايعة، فلمَّا كان ما كان أبى وكان يقول -رضي الله عنهما-: **"أصلي خلف من غلب"** يعنى إذا استقر الأمر لواحدٍ منكما بايعته، أما وأنتم مختلفون الآن والناس مفترقون فلا، فاعتزل -رضي الله تعالى عنه- وترك الأمر هذا كله، حتى اجتمع الناس بعد ذلك على عبد الملك بن مروان كما سمعتم في حديث ابن دينار في كتاب الأحكام، يقول: **"شَهِدْتُ ابْنَ عُمَرَ حَيْثُ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى**

عَبْدِ الْمَلِكِ" وهذا بعد موت ابن الزبير؛ لأن سيرة ابن عمر كما سمعتم، كتب إلى من؟ إلى عبد الله عبد الملك بن مروان وقال له: " إِنِّي أُقِرُّ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِعَبْدِ اللَّهِ عَبْدِ الْمَلِكِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ مَا اسْتَطَعْتُ وَإِنَّ بَنِيَّ" يعني أولاد من؟ عبد الله بن الزبير الذكور، قال: "وَإِنَّ بَنِيَّ" الذكور، الحريم ما لهم دخل في هذا الباب؛ واليوم يطالبون بالحريم، هذا بابٌ عظيم "وَإِنَّ بَنِيَّ" فالأمر هذا خاصٌ بالرجال؛ ما قال أولادي، وفي الميراث قال: ﴿وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ [النساء:١١]، فلا تفضل هذا على هذا، أعطِ حق الله فأنت لا تدري أيهم ينفع الله به، قد يأتيك البر من البنت التي لا تقيم لها أنت وزنًا، فلا يراعى إلَّا ما حكم الله به في هذا الباب، فهنا يقول: "وَإِنَّ بَنِيَّ قَدْ أَقَرُّوا بِمِثْلِ ذَلِكَ" وقد جمعهم عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما- وأخبرهم بما كتب به لعبد الملك بن مروان، وحذرهم أن يخالف واحد منهم في هذا الباب، وهذا بعد قصته المشهورة حينما جاء إلى ابن المطيع، فقال: ألقوا لأبي عبد الرحمن وسادة فأنكر عليهم في هذا الأمر غاية الإنكار، فإذا كان عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- يفعل ذلك، نجا به من الفتن معتصمًا بالسنة؛ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

وهنا يقول -رضي الله تعالى عنهما- "وأقر بذلك" وقلنا في راوية "وَأُقِرُّ لَكَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ -صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَم- فِيمَا اسْتَطَعْتُ" فقوله: على سنة الله ورسوله أي: معتصمًا في بيعتي لك بما جاء في سنة النبي - صلى الله عليه وسلم -، وهو أنني أسمع لك في العسر واليسر، والمنشط والمكره وعلى أثرة علي لكن فيما استطعت.

فلما اعتصم بهذا نجا -رضي الله تعالى عنهما- ولقد كان الأئمة من بعده يقفونه ويأخذون بموقفه في الولاة، ففي حال الاختلاف والشقاق وعدم الاستقرار في باب المنازعة وقت المنازعة في عدم استقرار الأمر لأحد فإنه يجب أن يجتنبوا جميعا حتى يستقر الأمر لواحد، فإذا استقر الأمر لواحد واجتمع الناس عليه كما اجتمعوا على عبد الملك بعد طول خلاف وبعد ما مات عبدالله بن الزبير -رضي الله تعالى عنهما- فأصبح حينئذٍ عبد الملك يدعوه الناس بأمير المؤمنين، فكتب إليه عبد الله بن عمر **"إِنِّي أُقِرُّ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِعَبْدِ اللَّهِ عَبْدِ الْمَلِكِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ"** هو عبد الملك اسمه، عبد الملك بن مروان، وقال له عبد الله وسماه عبد الله لأنه عبد لله -تبارك وتعالى- وقد كان أصحاب النبي -صلي الله عليه وسلم- يكتبون هكذا من عبد الله فلان يسمي نفسه هو عبد لله على العموم واسمه خاص يعرف به، فبايعه على السنة التي كان يبايع بها النبي -صلى الله عليه وسلم - وفي حدود الطاقة والاستطاعة.

فالاعتصام بهذا فيه السلامة من الوقوع في الفتن، والوقوع في الفتن هو الدخول في القتال هذا المراد به الوقوع في الفتن في هذا الباب هو الدخول في القتال، وفي سفك الدماء، وارتكاب الحرمات، وانتهاك المحرمات فهذا قد اعتزله عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما- فلما جاء الأمر الوقت الذي يناسب كتب بهذه الكتابة.

فالشاهد الواجب علينا نحن جميعًا في هذه الأزمان، وفي هذه الأيام خاصة وأنتم ترون الفتن في باب الولاية في كل مكان من بلدان المسلمين إذا حصل الخلاف واختلف الناس على

الولاية في قطر من الأقطار، فإن الواجب على المسلم أن يدعهم جميعًا حتى يصبح الأمر إلى واحد منهم يجتمعُ عليه الناس، فإذا اجتمع عليه الناس بايعه على السمع والطاعة ولا يحل له أن يفارق، كما قال: الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- في ذلك حينما سأل عن هذه المسألة، فقال: **"لا يحل لامرئ مسلم أن يبيت ليلة وهو لا يرى له السمع والطاعة"** يعني الإمام إذا غلب وإذا ظهر وإذا استقر له الأمر.

والشاهد أن المقتدي به هنا من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما- فسلم -رضي الله عنه- ولم يدخل في القتال على أمور المُلك لم يحصل منه شيء من هذا ومنع أهله -رضي الله تعالى عنه- حتى جاء وقته فبدله سامعًا مطيعًا وفق سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهكذا يتبين لنا أن السمع والطاعة إنما هما مربوطان ومقيدان بالشرع بكتاب الله -جلَّ وعلا - وسنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فإن السمع والطاعة بالمعروف، والسمع والطاعة في طاعة الله ورسوله، والسمع والطاعة في طاعة الله، فإذا أمر العبد بمعصية فلا سمع ولا طاعة، لكن لا ينزع يدًا من طاعة، فهكذا يجب على المسلم أن يسير في هذا الباب معتصمًا بما جاء في سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

وهنا نص ابن عمر على السنة ولم يذكر القرآن؛ وذلك لأن القرآن الكريم فيه الأمر بالسمع والطاعة للولاة وليس فيه التفصيل، القرآن فيه الأمر بالسمع والطاعة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ النساء:٥٩، هذا موجود في كتاب الله -عز وجل- فأصل السمع والطاعة

موجود، لكن الصفة ليست على التفصيل إلا فيم؟ في السنة، فيحتاج الإنسان إلى أن يراجع السنة في هذا الباب، فإذا راجع السنة اتضحت له الصورة وانجلت، وكل حالة وما يناسبها ويصلح لها؛ ولذلك عدل ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- فقال: "أُقِرُّ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِعَبْدِ اللَّهِ عَبْدِ الْمَلِكِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ" -صلى الله عليه وسلم - فالمراد بسنة الله إجمالًا السمع والطاعة، لكن سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- هي المفصلة لذلك ولذلك قال: "فِيمَا اسْتَطَعْتُ" إشارة إلى تلقين النبي -صلى الله عليه وسلم- لأصحابه حينما يبايعونه على السمع والطاعة، تلقينه إياهم فيما استطاع فلا يكلف الإنسان فوق ما يستطيع.

ولعلنا نقف عند هذا، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد.

وللاستماع إلى الدروس المباشرة والمسجلة والمزيد من الصوتيات يُرجى زيارة موقع ميراث الأنبياء على الرابط

miraath.net

وجزاكم الله خيرا.